

الكشاف

" نزل " ههنا بمعنى أنزل لا غير كخبر بمعنى أخبر وإلا كان متدفعاً . وهذا أيضا من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجاهلهم عن اتباعه . قالوا : هلا أنزل عليه دفعه واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة وما له أنزل على التفاريق . والقائلون : قريش . وقيل : اليهود . وهذا فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته ؛ لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفردا . وقوله : " كذلك " جواب لهم أي : كذلك أنزل مفردا . والحكمة فيه : أن نقوي بتفرقة فؤادك حتى تعبته وتحفظه ؛ لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء وجزأ عقيب جزء . ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعث به وتعبا بحفظه والرسول A فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام حيث كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ فأنزل عليه منجما في عشرين سنة . وقيلك : في ثلاث وعشرين . أيضا : فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفردا . فإن قلت : ذلك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدمه والذي تقدم هو إنزاله جملة واحدة فكيف فسرته بذلك أنزلناه مفردا : قلت : لأن قولهم : لولا أنزل عليه جملة : كعناه : لم أنزل مفردا ؟ والدليل على فساد هذا الاعتراض : أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه وتحذوا بسورة واحدة من أصغر السور فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لادوا بالمناصبه وفزعوا إلى المحاربة ثم قالوا : هلا نزل عليه جملة واحدة كأنهم قدروا على تفاريقه ورتلناه . ومعنى ترتيله : أن قدره آية بعد آية ووقفه عقيب وقفه ويجوز أن يكون المعنى : وأمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله : " ورتل القرآن ترتيلا " المزمّل : 4 أي اقرأه بترسل وتثبيت . ومنه حديث عائشة B ها في صفة قراءته A : لا كسر دكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدّها وأصله : الترتيل في الأسنان : وهو تفليجها . يقال : ثغر رتل ومرتل ويشبه بنور الأقحوان في تفليجه . وقيل : هو أن نزل مع كونه متفرقا على تمكث وتمهل في مدة متباعدة وهي عشرون سنة . ولم يفرقه في مدة متقاربة " ولا يأتونك " بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة - كأنه مثل في البطلان - إلا اتيناك نحن بالجواب الحق الذي لا محيد عنه وبما هو أحسن معنى ومأدى من سؤالهم . ولما كان التفسير هو التكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا : تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل : معناه كذا وكذا . أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون : علا كانت هذه صفتك وحالك نحو : أن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقي إليك كنز أو تكون لك جنة أو ينزل عليك القرآن

جملة إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا ومشئتنا أن تعطاه وما هو أحسن
تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته يعني : أن تنزله مفرقا وتجديهم بأن يأتوا ببعض
تلك التفاريق كما نزل شيء منها : أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة
ويقال لهم جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بعد ما بين طرفيه كأنه قيل لهم : إن
حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضللون سبيله وتحتقرون مكانه ومنزلته ولو نظرتهم بعين
الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه وسبيلكم
أضل من سبيله . وفي طريقته قوله : " قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه
الله وغضب عليه " الآية المائدة : 60 . ويجوز أن يراد بالمكان : الشرف والمنزلة وأن يراد
الدار والمسكن كقوله : " أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا " مريم : 73 ووصف السبيل
بالضلال من الإسناد المجازي وعن النبي A : يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث أثلاث : ثلث
على الدواب وثلث على وجوههم وثلث على أقدامهم ينسلون نسلا . " ولقد آتينا موسى الكتاب
وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم
تدميرا "